الأماكن الهادئة وبرامج القراءة

سؤال: إن الإنسان المعاصر يضيق صدره في خضم أنواع وأنواع من ضوضاء الحياة ومشاغلها اليومية، فكلما وجد الفرصة سانحة بحث عن مكان هادئ وشرْم منعزل، وإنّ القلوب المؤمنة لَترغب في الاستفادة من تلك الأماكن الهادئة من أجل حياة القلب والروح؛ فما الأمور التي يجب الانتباه إليها حتى نستطيع الاستفادة الكاملة من برامج هدفُها تحقيقُ هذه الغايةِ؟

الجواب: لكلٍّ منّا مجموعة من الوظائف في الحياة الاجتماعية يجب عليه أداؤها؛ والواقع أن على المؤمن أن يُخالِط الناسَ ويتعايش معهم إن كان يريد نفعهم وتوجيهَهم إلى أفق معين، وإرواءَ أراوحهم بما لديه من قِيَم؛ أجل، على من يؤمن بالله وباليوم الآخر إيمانًا حقيقيًّا أن يخالط الناس وأن يكون كبوصلة القبلة يرشد من حوله إلى قبلة الحق والحقيقة دائمًا، يقول مفخرة الإنسانية ﷺ: **"الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ"**[٨٣]؛ ولهذا أرى أن العزلة الدائمة والخلوة المستمرة معناهما التنصل من المجتمع ومن الوظائف الاجتماعية، فأظن بناءً على هذا أن من يهرب من تلك الوظائف يأثم، حتى وإن كانت عزلته لنيل الكمالات والفيوضات الشخصية؛ لأن الأصل في الإسلام هو مصاحبة الحقّ بين الخلق، والسعي لخدمة الإنسانية.

(٨٣) سنن الترمذي، صفة القيامة، ٥٥.

obeikandl.com

نعـم، إننا نواجـه ما نكره خـلال مخالطة الناس لتحقيـق غاية عُلوية؛ حتـى إننا قد نمشـي فـي الوحل بلا قصد فتتلوث ملابسـنا من باب عموم البلـوى؛ أجـل، قد تتلـوث عيوننا ونحن فـي الحياة الاجتماعيـة، وتتدفق الشوائب إلى آذاننا دون أن ندرك، فيتعكر عالمنا الداخلي بعدة ملوِّثات.

ومن يصبر على كل هذه السـلبيات في سبيل غاية مثالية سامية يحتاج أحيانًـا إلـى العزلـة في مكانٍ نقيّ يستنشـق فيه الأُكسـجين حتى يسـتوفي حاجته منه، ويسـتعيد طاقته هناك ليتنقَّى مما علِق به من أوسـاخ، ويطَّرِح مـا أصابـه من القذر؛ وأعتقد بـأن برامج المذاكرة والقـراءة في إطار غاية كهذه تعدّ من ضروب العبادة.

ثمة أمر يتعيّن الانتباه إليه في هذه النقطة: تلك الأماكن الهادئة والشروم المنعزلـة التي يتطلب الوصول إليها تكبُّدَ مشـاقَّ ونفقـات كثيرة ينبغي أن يُستفاد منها، وأن لا تُضيـع منها لحظة واحدة، وأن تُعمر بفعاليات القراءة المنتظمـة، وتُحيـا بـالأوراد والأذكار؛ أجـل، يجب أن تُؤلَّف سـمفونيات وجوقات موسـيقية من الأذكار والتسـبيحات التي تتفجر من القلوب وتهزّ الأرض والسماء، حتى يهمّ سُكّان الملإ الأعلى بالمشاركة فيها.

مناخٌ منفتحٌ على الرُّوحانيّات

في مخيمات القراءة القديمة التي تُقام في أشهر الصيف كان الأصدقاء ينزوون ليلًا هنا وهنالك يتلون القرآن ويبتهلون بالأدعية، الأمر الذي كان له بالـغ الأثر في نفسـي؛ ويقرؤون في هذه المخيمات ٢٠٠-٣٠٠ صفحة يوميًّا حول الحقائق الإيمانية، ويتذاكرون موضوعات شتّى.

والحياة في هذه المخيمات متواضعة جدًّا، فهم يرقدون على الأرض فوق حصير، وأنا الفقير أطهو الطعام وأقدمه لهم.

وذات يوم زارنا شخص مرموق، فلما رأى ما يجري في ظل هذه الظروف العسِرة قال: "لا أظن أن في الأرض الآن مكانًا تسوده الروحانية كهذا المكان"، ثم عاود المجيء في العام التالي.

وعلينا في هذه الأجواء النقيّة أن نحاسب أنفسنا ونرصد تقصيرنا في أعمال الخدمة، وأن نحسب المسافة بين ما نحن عليه وما ينبغي أن نصل إليه، وأن نتخلى عن اللذات، ونتجرد من الحيوانية، ونطرح القاذورات البشرية جانبًا، ونعزم السفر على مِحْوَر حياة الروح، ونسعى للانفتاح على الروحانيات.

وأنوّه هنا بأمر مهم:

كنت أفكر في أيام المخيمات أن أوصي إخواني بمائة ركعة كل ليلة، ثم خشيت أن يكون هذا تكليفًا بما لا طاقة لهم به، لكن من ينظر في سيرة العظماء يجدهم يصلّون مائة ركعة كل ليلة حتى في طفولتهم.

فعلى من شهد مثل هذه المخيمات والبرامج أن يصلّي مائة ركعة كل ليلة إن أمكن، وأن يستغلّ تلك الليالي التي تفيض بالأسرار والأحزان بالدعاء والاستغفار وقراءة القرآن والأذكار.

مؤلَّفاتٌ مألوفة غلبت عليها الإلفة

لو أن أهل المخيم قرؤوا ٣٠٠ صفحة يوميًّا؛ حتى يتسنى لهم حسن الاستفادة من برامج الاسترواح التي يمكن تسميتها "العزلة المؤقتة"، فإذا كان البرنامج ١٥ يومًا، فسيقرأ الفرد ٤٥٠٠ صفحة؛ فإن قام بذلك البرنامج مرتين سنويًّا قرأ عددًا كبيرًا من الكتب التي تبحث في قِيَمنا الذاتية.

ومـن المفيد جـدًّا التخلص من الرتابة، والاشـتغالُ بالقـراءة المقارنة بين هذه المؤلفات النفيسة والمؤلفات الأخرى؛ وتحققُ هذا بالطبع رهنٌ بموافقتهم جميعًا.

وهـذا الأمر سـيُجهِد مَن لهم الريادة في عالـم القراءة والمذاكرة حتى يأتي يوم نتخلص فيه من الإلف والطرز القديم للقراءة.

وليُعلَم أن الناس يتشـكلون تبعًـا لرُوّادهم، فإن عُني الرُّوّاد بهذا الأمر وألحّـوا علـى تطبيقه تأسَّـى بهـم الأتباع؛ فيا للأسـف لقد اسـتولت علينا وأسَـرَتْنا حالة عقيمة، إنها القراءة العابـرة لهذه المؤلفات القيّمة، والمرورُ عليهـا مرورَ الكرام دون إجهاد النفس فـي فهمها بعمقها الحقيقي؛ وذلك لأنه لم يتكون عندنا منهج قراءة يعتمد على المقارنة والمحاكمة العقلية.

كنـوز من جوهر وياقوت وزبرجد قضى عليها الإلف، وأعتقد أن هذا الأمر قد يُفضي إلى امتعاض أصحاب هذه المؤلفات القيّمة مِنّا.

مسألة أخيرة:

إن تحقيـق مثـل هذا الصفاء والنقاء -ولو مؤقّتًا- في مكان هادئ كأنّه "صُوْبَة" صيانة تصوننا في حياتنا الاجتماعية القادمة.

والحق أنه منذ أن تشـرَّف مجتمعنا باعتناق الإسـلام لم يتلطخ بمثل هـذه القـذارة التـي نراهـا اليوم، فالشـوارع والأسـواق وصحـون المعابد والمؤسساتُ التعليمية ملطخةٌ بالنجاسة؛ لذا فإن التخلص من هذه الأدران، والتطهـرَ في مكان طاهر، والإحسـاسَ والابتهاج بالطهر مرة أخرى، أمور لها أهمية بالغة في مضيّ الإنسان في حياته على نهج طاهر قويم.

إن اللجـوء إلـى العناية الإلهيـة بالأدعية والأذكار مصـدر قوة يصون الإنسـان ويرعاه، يقول تعالـى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ (سُـورَةُ البَقَرَةِ: ١٥٢/٢)،

فهذه الآية تشير إلى أننا إذا ذكرْنا الله بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، ذَكَرَنا هو بعنايته عند المصائب وانقطاع السبل، وتشير هذه الآية أيضًا إلى ما يلي: "تَوَجَّهوا إليّ بفقركم وعجزكم، أؤيّدكم بحولي وقوتي"؛ وإننا لنستشعر مدى تجلّي اللطف الربّاني في هذا التوجه الإلهي الذي أتى على صورة العقد، وكأن ربنا ﷻ يتنزل إلى مستوانا ويعهد إلينا عهدًا فيقول لنا: "افعلوا لي هذا، أفعل لكم ذاك".

ومجمل القول أننا جميعًا بحاجة ماسّة إلى مثل هذه العزلة المؤقتة حتى يكونَ بوسعنا تنقية أعيننا وآذاننا وألسنتنا من الذنوب والآثام، وتزكيةُ قلوبنا كي نتجدد، والمهم في مثل هذه اللقاءات أن تركّز العقولُ على قراءة الكتب، والقلوبُ على الأدعية والأذكار، وأن نعفّ عن الخوض في أمور تافهة، وألا نخوض في اللغو ولهو الحديث، وأن يكون كل كلامنا في الأمور السامية.

openkandil.com

obeikandl.com

الحماسة والوَلاء

سـؤال: ما الأمور التي ينبغي أن نرعاها حقّ رعايتها عند ذكرنا لعظماء عرفْنا بهم الحقَّ والحقيقة، فنحن نحترمهم ونحبّهم حُبًّا جمًّا؟

الجواب: إن القلوب المؤمنة بينما تسعى وتجهَد كي تُودِعَ إلهامات أرواحها في صدور مخاطبيها قد تضطر إلى ذكر جماليات بيئتها التي تعيش فيها، ولا بد أن يُوضع في الحسبان بشكل مطلق الشعورُ العامّ لمن يسيرون في خط مختلف في بيئة أخرى؛ نعم، قد يتحدث غيرُنا عن جماليات شاهدوها وعاينوها في بيئتنا ويكتبونها وفقًا لفهمهم وأسلوبهم الخاصّ، فما ينبغي للقلب المؤمن أن تسيطر عليه الحماسة ألبتة، إلا أن عليه ألا يبالغ قطعًا وإن تحدّث عمّن يحبّهم لدرجة العشق ويحترمهم كثيرًا، لا سيما إن كان حديثه عن مسائل ظنيّة أو لا تَمُتُّ بِصلة مباشرة إلى روح الدين،؛ فلنلزم الدقة القصوى في هذا، والحذر الحذر من الخوض في موضوعات كهذه.

قد يتعلق امرؤ مثلًا بالشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي تعلّقًا وثيقًا، حتى إنه في حالته الروحية هذه لو كانت له ألف روح لضحّى بها جميعًا حبًّا فيه ووفاء له، ثم إنه عدا الطرق والمشارب الأخرى فللنقشبندية نفسها فروع شتى مثل: المجددية، والخالدية، والكفرويّة، وقد يكون بينها تنافس على نحو ما؛ والتنافس ينبغي ألّا يسوقنا إلى التزاحم، بل التسابق في الحق

من منطلق "لن أتخلّفَ عن إخواني"، أو قل: ينبغي أن يكون التنافس طرزَ حركةٍ ومنطق سباقٍ منطلقًا من مبدأ "أيدخل إخواني الجنة ولا أدخلها أنا؟ عليّ أن أدخل معهم"؛ وعندما يختل التوازن في هذا الشعور أو يضيع أو يخطئ الناس في توظيفه فإنهم يختصمون، بل قد يزداد الأمر، فتتحول المنافسة إلى حسد وحقد، وهذا أمر خطير جدًّا على أهل الإيمان؛ ولهذا ينبغي للقلوب المؤمنة حتمًا ألّا تربط المسألة بِـ"الانتماء" المتعصب لئلا تُهيّج وتثير نوازع الحَسَد لدى من يعملون ويجتهدون في مسارات أخرى، فلتتحكم في مشاعرها لتحقيق الوفاق والاتّفاق بين المؤمنين.

أعلى المراتب

الصدق والولاء للأشخاص ليس هو الأصل، بل الأصلُ الصدقُ والولاء للفكرة المثالية التي يحاول أولئك الأشخاصُ تحقيقَها بكلّ ما أوتوا؛ وذلك أن الأشخاص تفنى والأفكار تبقى؛ وليس ثمة مَرتبة أعلى من الصدق والولاء، ففي آيةِ ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٦٩/٤) قُدِّم الصدقُ على الشهادة والصلاح؛ فسيّدنا أبو بكر أعلى الناس رتبةً بعد الأنبياء يُلقّب بِـ"الصدّيق الأكبر"؛ فليس الهدف أن نغالي فيمن نحبّ ونحترم، بل الهدف السير ما استطعنا في طريقهم واتباعهم في كل خطواتهم.

ومن يدّعي حبّ شخص ما حبّ العاشقين، فدعواه عندي كاذبة إلا إن أخذه الوجد كلما تذكّره، وكلما صلى مائة ركعة في ليله دعا ربّه قائلًا: "اللهم احشرني معه"، وضحّى بكل ما لديه في سبيل رسالة محبوبه، وهذا هو الأهم؛ وهو المعيار الذي ينبغي أن تراعيه وأنت تحاسب نفسك وتسائلها؛ وإلا فليس لأحد أن ينفي عن أحد الإخلاص والصدق.

واعلموا أنكم إن أخذتم في الحديث عن شخص ما بملاحم حماسية فإنكم تستفزّون الآخرين دون أن تشعروا، وتتسببون في تكوين جبهات كثيرة ضده؛ حتى إن المبالغة في الحديث والسلوك والتصرفات قد تستثير المؤمنين على درجات متنوعة لا أعداء الدين فحسب؛ أجل، إننا حين نضيّق واسعًا ونختزل القضية في أشخاص، نكون قد دفعنا من يخدمون الإسلام في خطوط متوازية إلى المنافسة والشحناء، وربما نهلكهم بداء الحسد؛ فأكرر القول: ليس المهمّ مدح مَن نحب، بل المهم هو الصدق والولاء الكامل لقضاياهم.

عباراتٌ فيها مبالغات ضارّة تكاد تكون خيانة

وإنه لظلمٌ بيّن وإجحافٌ كبير أن ننسب كلَّ جميل إلى الرُّوّاد والموجّهين، ثم ننعتهم بعبارات مبالغٍ فيها؛ لأن كلّ نجاح وإنجاز إنما هو إحسان ربانيّ لروح الوحدة والتعاون، فعزْوُ كلّ الخدمات الإيمانية إليهم وحدهم قد يُفضي إلى الشرك بالله والعياذ بالله، وهو ظلم كبير لجهود ومساعي من جاهدوا وثابروا في سبيل تحقيق هذه الخدمات الجليلة.

أما مسألة الرّيادة فلا ينبغي أن ننسى أننا جميعًا إخوة، وقد يسبق بعضُنا بعضًا في الدخول إلى ميدان الخدمة بجَبْرٍ لُطْفِيّ من الله؛ أي إن الله تعالى قدّر في اللوح المحفوظ مولد شخص ما قبل غيره، ولا قِبلَ لأحدٍ بتحديد تاريخ مولده، فلا قيمةَ إذًا مطلقًا لمسألة سبق واللحاق بركب خدمة الدين.

ونحن دائمًا نوقّر كبارنا وعظماءنا امتثالًا لقول نبينا ﷺ: "**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا**"(٨٤)؛ لكن ليس معنى هذا رفْعَ هؤلاء الكبار

(٨٤) سنن الترمذي، البر والصلة، ١٥؛ سنن أبي داود، الأدب، ٥٨.

والعظام إلى درجات ينوء كاهلهم بها والغلو في الحديث عنهم، فمثلًا إن مَن عرف حقائق الإيمان على يدي شخص، قد يعده أحد الأقطاب، ولكن إن غالى وآثر التعبير هنا وهنالك عن مشاعره بملاحم حماسية، عُدّ ذلك خيانة للفكرة المثالية التي كان ذاك الشخص يسعى لتحقيقها.

ولكم إخوة هاجروا إلى شتى بقاع العالم، ونجحوا في إنجاز خدماتٍ عظيمة، إلا أنّ المبالغة -ولو بلا غرض أو هوى- في نعتهم بصفات وألقاب، ورفْعَهم إلى أعلى عِلّيِين يُعدّ خيانة لـ"حركة المتطوعين" هذه؛ لأن هذا سيسهم في تكوُّن جبهات حسد جديدة لا تستسيغ وجودكم؛ نعم، قد يغالي في هذا الأمر مَن ليس له دراية بمعاييركم، وليس بوسعكم تكميم أفواه الناس، إلا أن لكم وعليكم أن تَكُفُّوا عن الغلوّ وتعفّوا عن ذكر هذه الملاحم الحماسية.

أرى أن هذا الموضوع بالغ الأهمية في مستقبل خدمة الإيمان والقرآن هذه؛ وأعتقد أنه لا بد من التنبيه والتحذير المستمرّ في هذا الموضوع، وإن شئتم فعدُّوه "واجبًا خِدْميًّا".

التوقيع بـ"لا شيء"

عندما نلتقي بمَن يبذلون خدماتهم على طُرق ومناهج أخرى فمن الأهمية بمكان أن نبدأ كلامنا بذكر فضائل شخصيات تتبوأ منزلة كبيرة في قلوبهم، ونجلّهم ونقدّرهم في حديثنا؛ لأن الاحترام والتقدير يقابَلان بمثلهما، أما إن ضاق أفقكم وأخذتم تتحدثون عن منهجكم فحسب لحبكم المفرِط له، فقد وسّعتم الهوة بينكم وبينهم، وأسهمتم في ردود فعل سلبية إزاء مسْلككم؛ فعلى من أحبَّ مشربَهُ وتعلَّق به بحبّ وعشق عظيم وينشد احترام الآخرين وتوقيرهم له أن يفكِّر جيدًا: ما الطريق إلى

تحقيق هذا: أهو في ذكر فضائل مشربي وأصحابي أم في اتساع صدري للآخرين واحترامهم وتقديرهم؟

وصفوة القول أننا -معشر المؤمنين- وإن كنا في مسارات شتى في طريقنا لخدمة الدين، لكنْ كلٌّ منا يقوم بحمل جزء من هذا الكنز الثمين السامي.

ومن الخطأ أن يقول امرؤ: "إن هذا أو ذاك يحمل أثقل ما في هذا الكنز"؛ لأن في هذا إثارة لمشاعر التنافس والتحاسد؛ فإن كانت الحقيقة هكذا فسينال هذا الشخص أعظم ثواب في الآخرة بلا شك، أمّا إن غالينا في تلميع صورة مَن هم على منهجنا، فقد تعثرنا في أوحال الشرك بعَزْونا أفعال الربّ إلى العبد، وأفسدنا روح الوفاق والاتفاق؛ فعلى من كان التوحيد غايتهم الأصلية وأعلنوا الحرب على الشرك ألّا يفسحوا المجال لتسرّب ذرة من الشرك إلى قلوبهم؛ فالله سبحانه ﴿**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ١٠٢/٦؛ سُورَةُ الرَّعْدِ: ١٦/١٣؛ سُورَةُ الزُّمَرِ: ٦٢/٣٩؛ سُورَةُ غَافِرٍ: ٦٢/٤٠)، وهو يقول: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٩٦/٣٧)؛ فهو الخالق لأفعالنا، ونسبة الفعل إلى العبد كارثةٌ كبرى ساقتها الفلسفة الإغريقية إلى العالم الإسلامي، فلنبرأ من هذا كله ونستمسك بالتوحيد.

ومن العوامل المهمة للوصول إلى التوحيد معايرة الإنسانِ نظرتَه إلى نفسه أمام الله ﷻ، وتأتي في هذا السياق مقولةُ الأستاذ بديع الزمان: "أيتها النفس المرائية، لا تغترّي بقولكِ: "أنا خدمتُ الدين"، فإن الرسول ﷺ يقول: "**إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَـذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**"(٨٥)، وبهذا السر عليكِ

(٨٥) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ١٨٢؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٧٨.

أن تعتبري نفسَكِ ذلك الرجلَ الفاجر، لأنكِ لستِ مُزكّاةً"[٨٦]؛ فهو يضع نفسه موضعها، ويعدها مَمَرًّا للجماليات فحسب، لا مَظْهَرًا لها[٨٧]، بل لا يعدّها شيئًا، إنه بهذا ليعطينا درسًا عظيمًا بصفته مُوجّهًا ومعلّمًا، فإن كانت نفس هذا الرجل العظيم "لا شيء" فعلينا أن نرى أنفسنا "لا شيء في لا شيء".

(٨٦) سعيد النورسي: **الكلمات**، خاتمة الكلمة السادسة والعشرين، ٥٤٢.

(٨٧) انظر: سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الثامنة عشرة، ٢٤٨.

obeikandl.com

روابط الأخوة النورانية

سـؤال: ورد في "الخطبة الشـامية"[٨٨] أن الجهل بالروابط النورانية التي تربط أهلَ الإيمان بعضَهم ببعض من أخطر الأمراض التي حالت دون تطوّرنا ورقيّنا، فما هذه الروابط النورانية؟.

الجـواب: حينما ألقى بديع الزمان سـعيد النُورْسِـي خطبته الشـامية بالجامـع الأمـوي فـي دمشـق كان العالـم الإسـلامي يتعـرض لمصائب وكـوارث لا نظيـر لها ولم يشـهدها طوال تاريخه؛ فسـعى الأسـتاذ بديع الزمان ﵀ في مثل هذا الجو إلى البحث عن وسائل لاستثارة حميّة هؤلاء الناس الذين ركنوا منذ سنوات إلى الدعة والخمول وكأنما أصابهم الصدأ، وغدوا لا يصلحون لشيء، فضمرت خلاياهم العصبية، وضعفت قابلياتهم وقدراتهـم على التحـرك والنهوض من جديد، محاولًا تحريك حواسّـهم الظاهرة والباطنة، المادية منها والمعنوية مرة أخرى.

وبدلًا من أن يذكّر الناس بجو الموت بكلمات مخيّبة للآمال ومارْشات جنائزية مثل المارْش الجنائزي لـ"شـوبان"، نراه يترنم بعبارات قوية هادرة

(٨٨) ألقى الأستاذ بديع الزمان سعيد النُورْسِي خطبة وهو في شرخ الشباب باللغة العربية في الجامع الأموي بدمشق، وكان بإلحاح علماء الشام، وحضرها جمٌّ غفير من الناس يربون على عشرة آلاف شخص، تناول الأستاذ فيها مشاكل المسلمين وكشف الداء وأشار إلى الدواء وطُبعت كتابًا بعنوان "الخطبة الشامية". (المترجم)

obeikandi.com

كالأصوات التي تُطلقها الجوقات الموسيقية العسكرية قائلًا: "كونوا على أملٍ، إن صوت الإسلام الهادر سيصبح أعظم الأصوات وأعلاها في انقلابات المستقبل"؛ أراد بذلك أن يكون مصدرَ أمل للإرادات الميتة، إن الحديث وقتَ انبلاج الفجر عن بعض الأمور التي تبعث على الأمل وإن عُدَّ من المهارة، لكنه ليس مهارة كبيرة؛ المهارة الحقّة تكمن في القدرة على إلقاء هذه الكلمات التي تشحذ الإرادات وتُحييها في وقت لا يطلُع فيه ولو فجرٌ كاذب.

روابط الأُخوَّة بعدد الأسماء الإلهية

أجل! قام الأستاذ بديع الزمان في هذه الخطبة التي ألقاها قبل نحو قرن من الزمان بتشخيص الأمراض التي تحول دون رقيِّنا وتقدُّمنا أولًا، ثم وضع الوصفات العلاجية اللازمة لإحياء العالم الإسلامي من جديد، فكان من أعظم الأمراض التي شخّصها: الجهلُ بالروابط النورانية التي تربط أهل الإيمان بعضهم ببعض، أما الوصفة الطبية التي وضعها فهي إحياء مفهوم الوفاق والاتفاق وروح الشورى من جديد.

في الواقع تكلم الأستاذ النُورْسِي عن هذا الموضوع في الخطبة الشامية إجمالًا، وأخضعه فيما بعد للشرح والتفصيل في "الملاحق"، و"رسالة الإخلاص" و"رسالة الأُخوَّة"، فذكر مثلًا في "رسالة الأخوة" أن هناك روابط للوحدة والوفاق والأخوة بين المسلمين بعدد الأسماء الإلهية، وعدّدَ منها: "إن ربنا واحد، ونبينا واحد، وديننا واحد، وقبلتنا واحدة، ووطننا واحد..."، ثم لفت الانتباه إلى عِظَم هذا الأمر وأهميته بقوله "وهكذا واحد، واحد... إلى أن تبلغ المائة والألف".

قال النبي ﷺ: "**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ-** (شكَّ الراوي) **شُعْبَةً**"(٨٩)، ويمكن أن نعدّ هذا كناية عن الكثرة، فكلّ شعبة من هذه الشعب ما هي إلا رابطةٌ لا تنفصم تربط بعضنا ببعض، كما أن الحقائق التي بيّنها القرآن الكريم هي روابط قوية متينة تربطنا أيضًا ببعضنا.

من جانب آخر فإننا عند تناول هذا الأمر على مستوى أمة، نجد أن هناك كثيرًا من الروابط المشتركة فيما بيننا؛ حيث إننا نعيش معًا منذ زمن طويل تحت ظل وطن واحد، وفوق أرض واحدة؛ وعلى ذلك فنحن أبناءُ قَدَر واحد وثقافةٍ واحدة وتربيةٍ واحدة، وقد وقعنا تحت نِير ظلم واحد واضطهاد واحد واستضعاف واحد؛ ولهذا نبّه الأستاذ النورسي أنه من الظلم البيّن أن نقوم بسلوكيات تفضي بنا إلى الشقاق والنفاق والحقد والعداء رغم وجود هذا القدر من القواسم المشتركة التي تستلزم المحبة والأخوة.

إرادة التخلي عن الثوابت الشخصية

إن بقاء تلك الأواصر النورانية دون أن تهِن مرتبطةٌ بتخلي كل فرد -إذا لزم الأمر- عن ثوابته واجتهاداته واختياراته الشخصية؛ وأن يعيش رغمًا عن نفسه من أجل الالتقاء عند نقطة مشتركة، ولو عبّرنا عن هذا الخصوص بمفهوم فضيلة الأستاذ نقول: إذا أمكن تحقيق الاتفاق على "الحسن" في مسألة ما، فلا ينبغي السقوط في الاختلاف في "الأحسن"؛ وبتعبير مختلف: إن كان السعي وراء "الأحسن" سوف يُوقِعنا في النزاع، وجب حينئذ السكوت والاكتفاء بـ"الحَسَن"، ومن هذه الناحية فإنني أرى

(٨٩) صحيح البخاري، الإيمان، ٣؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٥٨.

أنه يتوجب عدم السعي إلى النزاع بين الإخوة بسبب الرغبة في الأحسن، طالما أمكنت إقامة الوحدة والتعاون حول "حَسَن"، كما ينبغي ألا تطرح على الساحة دواعي الاختلاف والافتراق؛ لأن الحق تعالى يرسل توفيقاته السبحانية مرتبطةً بالوفاق والاتفاق، فإنه وإن كان ما يُتّفق عليه "حَسنًا" ظاهرًا فحسب، فهو في الحقيقة أحسن من الأحسن؛ ولهذا السبب فإن تحاشي استخدام قسم من المسائل الفرعية عنصرًا يثير الفُرقة أمرٌ مهمٌّ جدًّا للحفاظ على روح الأُخوَّة.

أجل، يجب على الإنسان أن يضع في حسبانه أحاسيس الآخرين فيتخلى -إذا لزم الأمر- عن اجتهاداته واستنباطاته الشخصية، وبهذه الطريقة لا تُعطى الفرصة لأن تُتخذ آراءٌ خاصة بالفروع وسيلةً للاختلاف.

فمثلًا أداء الصلاة بشكل يوافق حقيقتها أمر مهم للغاية، وعلى حد قول "الإمام الأَلْوارلي" فإن "الصلاة عماد الدين ونوره، والصلاة هي التي تُسيِّرُ سفينة الدين، فالصلاة هي رأس جميع العبادات..."، وحقيقة الصلاة أن يتجرد المرء من نفسه، وأن يستشعر نفسه بين يدي الحق تعالى وكأنه في معراج، إذ ينبغي على الإنسان -بقدر سعة أفق عرفانه- أن يُطهّر قلبه من كل ما سوى الله بداية مِن حين ينوي الصلاة، وألّا ترى عينُه أيَّ شيء غيره تعالى ألبتة، ثم أنْ يقيم صلاته في وجد واستغراق وكأنه في بعد مختلف يشاهد تجليات مختلفة، غير أننا -بصفة عامة- أشخاص أُمِّيّون، وإن الصلاة التي يؤديها أمثالنا شكلية وصورية غالبًا، بيد أنه ينبغي ألا يُنسى أن الإنسان لو كان يؤدي صلاته مراعيًا أركانها وشروطها -حتى وإن كانت صورية- فقد أدّى وظيفته من حيث الظاهر، فليس من الصواب إطلاقًا استخدامُ أسلوب ولغة اتّهامية للناس، بدعوى أنهم لا يؤدّون

الصلاة بالمعنى والفحوى الحقيقي، وما يجب فعله هو قبول المسألة على حالتها هذه، حتى وإن كانت شكلية وصورية، ولا ينبغي أن نقع في الاختلاف رغبةً في الوصول إلى أعلى الدرجات وربطًا للمسألة بأقصى الغايات وأنجبها وأفضلها، وإلا فإن الإنسان وهو يبحث عما هو أفضل قد يهوي في لجة مختلف القبائح دون أن يدرك، وهذا يتسبب في قطع حفاوة الله بنا، ونظرِه وتوفيقِه وعنايتِه ﷻ.

وهذه الملاحظات يأتي مثلها للزكاة أيضًا؛ فقد تصفون الزكاة التي تُدفع بنسبة واحد في الأربعين بأنها "زكاة البخيل" لِحَثّ الناس على الإنفاق ولتتمكّنوا من تحريك "شعور العطاء" في القلوب، وتطلبون من الناس أن يعطوا الزكاة بمقدار واحد في العشرين، واحد في العشرة، واحد في الخمسة، ومهما كان هذا الأمر جائزًا في أسلوب الترغيب، فإن عليكم تجنُّبه على الإطلاق إن كان تصرفكم بهذا الشكل سوف يفتح بابًا من أبواب الخلاف ويتسبب في المنازعة والجدال، ولا بد من أن تُعتمد أحكام الدين الموضوعيةُ أساسًا في هذا.

ففي الصحيحين، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فعلّمه ﷺ ما عليه من صلاة وصيام وزكاة، فقال الرجل: "لا أزيد على هذا ولا أنقُص"، فقال رسول الله ﷺ: "**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**"(٩٠)... فهذه إشارة إلى مسألتنا هذه؛ فإن اعتبرتم -وفق أحكامكم الشخصية الخاصة بكم- أن أقصى الغايات هي السبيل الوحيد للنجاة، أبعدتم مخاطبيكم عنكم، وحرمتموهم بعضَ الأعمال الصالحة التي يستطيعون القيام بها، وربما تكونون قد أيقظتم لديهم الشعورَ بالحسد والغيرة تجاهكم، وقِسِ العبادات والمسؤوليات الأخرى على هذا.

(٩٠) صحيح البخاري، الإيمان، ٣٤؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٨.

والخلاصة إنّ حثّ الناس على الوصول إلى أفق معين أمرٌ، وحصر المسألة في دائرة معيَّنة ومستوى معين أمرٌ آخر تمامًا، فإن كان لديكم أفق باعتبار حياة الروح والقلب دعوتم الناس إلى ذلك الأفق؛ غير أن تحقيق الاتفاق في مسائل يمكن الخلاف فيها، والوقوفَ عند نقطة الاتفاق، هو الأمرُ الأهمُّ، ومن هذه الزاوية لزام علينا أن نبحث في كل مكان وزمان عن وسائل الاتحاد، وأن نركّز على الوفاق والاتفاق، ونبذل كل أنواع التضحية لحماية روح الوحدة.

obeikandl.com

إصلاح النفس وإصلاح المجتمع

سؤال: يُذكر أن مَن لم يستطع أن يحلّ مشكلات نفسه لا قِبل له بحلّ مشكلات مجتمعه، فما هي ماهية العلاقة بين إصلاح النفس وإصلاح المجتمع؟.

الجواب: النفسُ موطن ومنبع للخصال الذميمة في الظاهر مثل الحقد والكره والشهوة والغضب، تلك التي وُضعت في جبلّة الإنسان لِحِكَمٍ ومصالحَ؛ وهي (أي النفس) آليّةٌ مهيّأة لتلقّي وساوس الشيطان وإيحاءاته وكأنها تعمل مركزَ اتصالات له، لكن لا بدّ أن نعرف أن هذه الآلية -في الوقت ذاته- صالحة للتحول والرقي، بل إنها وسيلةٌ مهمّةٌ لرقيّ الإنسان إلى العوالم المعنوية، ولكن أداء هذه الآلية مهمّتَها بإيجابية متوقفٌ على تزكيتها وتربيتها تحت رقابة القوانين السماوية، تمامًا مثلما نكبح جِمَاحَ حصان إذا أردنا اتخاذه مَطيّةً؛ وإلا فإن تركناها لحالها غذَّت السيرَ وراء الأهواء والرغبات، وانقادت للشهوات المادية والحيوانية، وتتبعت المساوئ والشرور، وهذا يُودِي بالإنسان في النهاية إلى هُوَّة سحيقةٍ ويكون مصيره الموت والهلاك.

obeikandl.com

الطفل الذي لا ينفطم

يصوّر الإمام البوصيري في قصيدته المشهورة حالَ النفس غيرِ المزكّاة، فيقول:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ، وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

أجل، إن فُطِمت النفسُ في أوانها بطُرُق تقنعها أُلجمت كلُّ رغباتها الجامحة، ولكن إن تُركت للبهيمية ونَمَت تحت تأثير الأفكار والمشاعر السلبية تحوّلت إلى شيء صعب القياد وأرغمت الإنسانَ على التعلق دائمًا برغباته وشهواته ونزواته، وهذا يُفضي إلى إقامة حواجز وموانع بين الفرد والحقيقة، وإلى أن يعرّض حياته لخسوف وكسوف.

ومن ثمّ يستحيل على مَن هو أسير لنفسه ويحمل على عاتقه مشكلات نفسه أن يكون قدوةً للآخرين يرشدهم إلى الخير، إذًا على الإنسان أن يحلّ مشكلات نفسه أولًا، وسبيل ذلك إعطاء الإرادة حقَّها والتصدي لرغبات النفس وأهوائها التي لا حدود لها، والاكتفاء بالملذّات والمتَع المتاحة في الدائرة المشروعة، وعدم إفساح المجال للنفس لتنزلق إلى الحرام، وهكذا تتخلص النفس من مرتبة "الأمّارة بالسوء" وتتّجه إلى مرتبة "اللوّامة" التي تجعل الإنسان يلوم نفسه ويحاسبها على أطوارها وتصرفاتها، بل ترتقي إلى أفق "المطمئنّة" بصورة يطمئنّ فيها ضمير الإنسان إلى العلاقة بينه وبين ربّه، وكما يستعيذ الإنسان بالله من كثير من الأشياء الضارّة فعليه كذلك أن يستعيذ به صباحَ مساء من أنانيته ومن نفسه التي تعمل في داخله كمركز رئيسيّ للشيطان، فإن لم يحدث هذا فلن تعدل النفس عن إثارة المشكلات، ولن يتخلص الإنسان من مشكلات نفسه.

أعظم الجهاد

قال رسول الله ﷺ لغُزاة رجعوا من غزوة: "**قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ**"، قالوا: "وما الجهاد الأكبر؟" قال: "**مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ**"(٩١)، ففي الحديث دلالة على ما لهذا الأمر من أهمية عظيمة.

وإنّ ورود هذا الحديث عند عودة المسلمين من غزوة بالغة الأهمية والخطورة لَيساعدنا على المقارنة بين جهاد النفس ومحاربة العدو، كما أن له مغزًى عميقًا كبيرًا، حيث إنه قيل في وقتٍ يشعر فيه الجميع بنشوة الغلبة والنصر.

قد يُقال كلامٌ مهمٌّ ولكن لا يُراعى فيه الحالة النفسية للمخاطبين، فلا يبعث في القلوب تأثيرًا على المستوى المطلوب، فذِكرُ هذا الكلام في هذا المقام له أهمية بالغة في خلاص المسلمين من نشوة النصر التي يحتمل أن يغرقوا فيها، فلقد رغب ﷺ من وراء هذا الكلام إلى أن يتصدى الصحابة رضي الله عنهم للأفكار السلبية التي قد تتسلل إلى نفوسهم وهم يدخلون المدينة منتصرين غالبين.

والحق أننا نحسن الظن بسادتنا صحابة رسول الله ﷺ، امتثالًا لقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الْحَشْرِ: ١٠/٥٩)، ولكن مفخرة الإنسانية سيدَنا محمدًا ﷺ لعلّه أراد الوقوف منذ البداية في وجه بعض الأفكار السلبية التي قد تتسلل إلى نفوسهم، مراعيًا في ذلك حالتهم الروحية؛ لأنهم بشر وأنه ﷺ القائم بتربيتهم وتزكيتهم.

(٩١) البيهقي: الزهد، ص ١٦٥.

ففي الطريق إلى غزوة حنين خطر ببال بعض المسلمين فكرة "لن نغلب اليوم من قلة"، فمُنوا في بداية المعركة بهزيمة مؤقتة، ثم تحول الإدبار إلى إقبال بما بذله رسول الله ﷺ من شجاعة وإقدام.

وإذا ربطنا هذا بموضوعنا نقول: أجل، قد يقاسي الناسُ أحيانًا في جهادهم في سبيل الحقّ، ويتعرضون لمتاعب وصعوبات خطيرة، بل قد يلجؤون إلى التضحية بأموالهم وأنفسهم في هذا السبيل، فينصرهم الله ويؤيّدهم بفتوحات مادية ومعنوية، فأهمُّ شيء حينئذ أن يتصدى الإنسان منذ البداية لبعض الأفكار والمشاعر السلبية التي قد تتحرك في داخله لحظة عودته منصورًا مظفّرًا، إن ما يقوله الأستاذ بديع الزمان معيار مهمّ في هذا الصدد: "يا نفسي المرائية! لا تغترّي قائلة: إنني خدمتُ الدين، فإن الحديث الشريف صريحٌ بـ"**أَنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**"(٩٢)، فعليك أن تَعُدِّي نفسكِ ذلك الرجل الفاجر، لأنكِ غير مزكّاة"(٩٣)، إذ أثناء مثل هذا الفوز تَزعزع حتى بعض أولياء الله الصالحين فدارت أعينهم، ناهيك عن الناس العاديين.

فلو أن إنسانًا لم يتعهد نفسه بتربيتها وتزكيتها ولم يتمّم أخلاقياتها فهذا يعني أنه قد فقد الكثير، ولم يحظ بالسعادة الدنيوية والأخروية؛ لأن الإنسان بنفسه لا بجسمه، يقول رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"(٩٤)، عندما يخشع القلب ينعكس هذا على الأحوال والأفعال، وقد لفت النبي ﷺ الأنظار إلى هذا فقال: "**لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**"(٩٥).

(٩٢) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ١٨٢؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٧٨.

(٩٣) سعيد النورسي: الكلمات، خاتمة الكلمة السادسة والعشرين، ٥٤٢.

(٩٤) صحيح مسلم، البر والصلة، ٣٤.

(٩٥) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ٣/٢١٠.

وعلى ذلك فمن الضروري أن يتوجه الإنسان إلى إنسانيته ويجادل نفسه ويحلّ المشكلات التي بينه وبين نفسه، ولأهمية هذا الأمر وصف الرسولُ ﷺ جهادَ النفس بـ"الجهاد الأكبر".

نِعَمٌ تصبح نِقَمًا

إن النفس كما تخدع الإنسان بالذنوب؛ فإنها ربما تقلبه رأسًا على عقب بالنِّعَم التي تفيض على الشخص كالمطر زخًّا، وعلى سبيل المثال فإن القرآن الكريم يخبر بأن قارون رغم أنه كان من قوم سيدنا موسى عليه السلام قد انقلب حاله رأسًا على عقب بسبب الثروة والإمكانيات التي امتلكها؛ وذلك أنه لم يؤمن بالله إيمانًا صحيحًا، وعجز أن يحل المشكلة في نفسه، ورغم أنه كان يبدو مؤمنًا إلّا أنه ما استطاع أن يحوّل إيمانه إلى يقين، وما تمكن من التوجه إلى أفق الإذعان، أي إنه لم يستطع أن يحوّل المعلومات النظرية إلى المعرفة بواسطة العمل، وما وصل إلى علم اليقين، وما تسنى له أن يدنو من عين اليقين على وجه الخصوص؛ ولذلك قال يومًا: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ٧٨/٢٨) فأصبح من الخاسرين نتيجة اغتراره بالإمكانيات الدنيوية رغم أنه كان إلى جانب موسى عليه السلام، وبالقرب منه، يعيش بين قومه.

والسامري أيضًا كان من قوم موسى عليه السلام، وكان إنسانًا يُجيد الحديث، وله مهارات مختلفة، لكنه أيضًا استخدم تلك المهارات الموهوبة له في صنع صنم على صورة عِجْل، فانقلب رأسًا على عقب وخسر، وذلك أنه عاش حياته حتى آخرها منفيًّا شريدًا كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ (سُورَةُ طَهَ: ٩٧/٢٠).

والملاحَظ أنه حين لا تُحَلُّ المشكلة في نفس الإنسان، فإن نعمة الله ذاتها تتحول إلى مصيبة على الإنسان، وبتعبير مختلف؛ إن الأشياء التي تبدو نِعَمًا قد تتحول إلى نِقَم على الإنسان وهو لا يشعر، بل إن المعرفة تصبح نِقمة وبليَّة عليه، والقدرة والتمكن من الإدارة يستحيل إلى بلية، وحفاوة الناس به تُضحي بلية، كما يصير شغل مناصب معينة أيضًا بلية... أجل، إن الإنسان حين يمتلك تلك الإمكانيات ربما يشرد عن طريق حضرة روح سيد الأنام ﷺ، ويسلك طرق أمثال الفرعون رمسيس، وآموفيس، وابن شمس.

وأريد أن أوضح الموضوع أكثر عَبْر منقبة يُروى أنها وقعت في زمان موسى عليه السلام، والحقيقة أنه يمكن النقد في أصل وثبوت هذه النوعية من المناقب، غير أن المهمّ في المناقب هو العبرة والفائدة منها، لا أصلها وثبوتها، يعني أن المهم هو المعنى الذي تفيده لنا المنقبة وما سنأخذه منها من دروس؛ نعم، يُحكى أن سيدنا موسى عليه السلام رأى في طريقه إلى جبل الطور واحدًا توارى في الرمال لأنه لم تكن لديه ثياب تستره، فرجا ذلك الشخصُ موسى عليه السلام أن يدعو الله تعالى له كي يكون ذا مال، فلما ذكر موسى عليه السلام طلبَ الرجلِ بين يدي الله تعالى، أُخبرَ بأن هذه الحال هي الأفضل لذلك الرجل، ونقل موسى عليه السلام هذا الخبر إلى الرجل، غير أن الرجل ألحّ في طلبه بدعوى أن أشياء أخرى مختلفة قد تكون خيرًا أيضًا، وفي النهاية أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يساعد ذلك الرجل، فاشترى الرجلُ بعد فترة زمنية شاةً بمساعدة موسى عليه السلام، فتزايدت الشياه عنده في زمن قصير، وصار الرجل صاحب قطعان من الأغنام، ومرت السنون والأيام ورأى سيدنا موسى عليه السلام جمعًا في مكان ما وهو ذاهب إلى جبل الطور أيضًا، وحينما دنا منهم وسألهم عن الحادثة، قالوا له: "كان ثمة رجل فقير جدًّا ههنا، وبعد مدة أعطاه الله تعالى إمكانيات واسعة، غير

أن هذا الثراء لم ينفعه، إذ بدأ يشرب الخمر، فشرب ذات يوم من الأيام وغاب عن وعيه، وبادر أحد الناس بالعراك، فقتله، والآن يُجرى القصاص منه".

والحاصل أن الإنسان الذي لا يحلّ مشكلاته في نفسه، كثيرًا ما يجعل -كما ثبت في التاريخ وفي يومنا الحاضر- كلَّ واحدة من التوفيقات المعنوية والمادية وسيلةً لهلاكه، فإن كانت "النعمة" تُبعد الإنسان عن الله تعالى وتسوقه إلى الغفلة، فإنها ليست نعمةً وإنما هي نقمة في شكل نعمة؛ أجل، ينبغي أن يُعلم جيّدًا أن الشيء الذي يُبعد الإنسان عن الله تعالى -حتى وإن كان هذا فتْحَ إسطنبول- هو بليّة سلّطها الله على الإنسان، تُوقعه في أكبر خسارة حيث مأمَلُ الفوز، والطريق للوقاية من كل هذه المخاطر هو عدم التخلي في أي وقت عن الجهاد الأكبر، أي مجاهدة النفس، والتنبُّه والتيقُّظ الدائم في مواجهة حِيَل النفس ومكائدها.

obeikandl.com

obeikandl.com

احترام المقدسات

سـؤال: ما هو السـلوكُ والموقفُ الإيماني الذي ينبغي لنا أن نتبعه تجاه محاولات التطاول على "الدين والقِيَم المقدَّسة" والإساءة إليهما؟.

الجـواب: إنّ مـن أهـم الفضائل التي يحـثّ عليها ديـنُنـا الحنيف أن يتحلّـى الإنسـان بالصبـر والأنـاة إزاء أيّ محاولة تسـتهدف الإسـاءة إلى شـخصه أو النيل منه، وألّا يقابل السـيئة بمثلها ما وسـعه ذلك، وأن يفتت ويذيـب مـا يُلقـى عليه من أحجـار بجوّه السـمح، مثلمـا تتفتت وتذوب النَّيـازِك التـي تصطـدم بالغلاف الجوي، بيد أن لله ﷻ حقًّا، وللرسـول ﷺ حقًّـا، وللقـرآن الكريم حقًـا أيضًا؛ فإن تعرضت تلك الحقـوقُ لأي إهانة أو صفاقـة فليـس للفرد حينـذاك أن يعفو أو يصفح أو يغـضّ الطرْف عن هذه الإساءات أو يتجاهلَها أو ألّا يحرّك ساكنًا تجاهها؛ لأن المسألة حينئذٍ ليسـت مسـألة شـخصية، لكنه -ورغم هذا- عليه أن يتخذ موقفًا يناسـب شخصيته ويليق به كما هو الحال في كل أمر، وأن يتحرّك وفقًا لما تستلزمه هويّته الإسـلامية، وأن يعبّر عن ردّ فعله بأسـلوب إيمانيّ، ولا يتنازل أبدًا عن أسلوبه؛ لأن أسلوب الإنسان شرفُه.

obeikandl.com

من أراد أن يُحترَم فعليه أن يَحترِم

إننا اليوم -مع الأسف- نشهد أنواعًا مختلفة من البذاءة؛ فكل يوم تقع عدة حوادث منشؤها الغلّ والحقد والكره، تَرِدُ من هنا وهنالك سلوكياتٌ غير لائقة وكلمات مستهجنة، فأحيانًا تقع حادثةٌ مفجعة في مكانٍ ما، وقبل أن يُعرف فاعلها نجد شخصًا يقول بوازعٍ من كره وحقد دفين في صدره: "لا بدّ أن نُجْهز على المسلمين جميعًا"، ثم يأتي آخر ويوجّه إهانةً أخرى للمسلمين، وفي مكان آخر تُعلَّق لافتات تثير حفيظةَ الناس، لكن لا يخطر على بال أحدٍ في خِضمّ هذه الفوضى والبلبلة أن التطاول على الذات الإلهية وأسمائها الحسنى وصفاتها العليا أو على الأنبياء أو الملائكة الكرام يؤذي ويجرح مشاعرَ جميع مَن يؤمن بهذه القِيَم المقدَّسة، بل إنّ المساس بقضايا متعلقة ببعض المقدّسات -كالبعث بعد الموت والسعادة الأخروية- قد يُزعج أيضًا أتباعَ الديانات الأخرى؛ لأن بعض الأديان الأخرى بأصلها تقرّ أيضًا بهذه الأمور الإيمانية.

فإذا ما أشركنا في هذا الأمر أتباعَ الديانات الأخرى ممّن يؤمنون بالآخرة مع المسلمين الذين يبلغ عددهم مليارًا ونصف مليار مسلم تقريبًا، نجد أن العدد يبلغ في مجمله أربعة أو خمسة ملايير من البشر؛ ولذلك إن حاول شخصٌ أن يتوقح أو يتفوّه بكلمة نابية إزاء قيمةٍ مقدسةٍ يجلّها ويقدرها الآن حوالي أربعة أو خمسة ملايير إنسان وتتبوأ منزلةً خاصةً في صدورهم، فيكون بذلك قد أهان وتطاول بوقاحة على خمسة ملايير إنسان.

ومن ثمّ لا بدّ لذلك الإنسان الذي سلك هذا السلوك الفظّ الوقِح أن يستعدّ لاستقبال تطاول الآخرين عليه وإهانتهم إياه؛ أجل، عليه ألا يتأذى

مـن وخزة الإبـرة التي طالته منهـم، وهو الذي طعن برمـح إهانته صدورَ ما يقرب من أربعة أو خمسة ملايير إنسان بتلاعبه بمقدساتهم، إن إهانتكم للآخرين -أيًّا كانوا- تُثير فيهم حميّة الإهانة والإساءة إليكم، كما أنّ توقير الآخرين يحرّك فيهم شعور الاحترام والتوقير لكم.

فمثلًا قد ترى إنسانًا لم يدرس الفلسفة ولم يقرأ شيئًا منها ينتقد مذهبًا فلسـفيًا، فيجعـل من نفسـه أضحوكـة للآخرين، كما أنه بفعله هذا يُسـيء الأدبَ مـع العلم والمناهج العلمية، إن معظم المعلومات الفلسـفية التي لـم تصحَّـح في ضوء القواعـد القرآنية الراسـخة تَخَبُّطُ الفكـر في نظرنا، لكن انتقاد تيّار فلسـفي بأسـلوب مُهين يجعل المتكلم أضحوكة ليس إلّا، وعلى نفس الشـاكلة فلو أنّ إنسـانًا لا صلة له بالموسيقى تكلّم جزافًا عن المقامات الموسيقية وكأنه موسيقِيّ كبير لعرّض نفسه للسخرية، فضلًا عن أنّ كلاًّ مـن هـذه الأمـور التي ذكرناها قد ينجح ويتخصـص فيها كثير من الناس بشيء من السعي.

واليـوم نجـد مَن لا يحيـط علمًا بالقرآن والسـنة، ولا درايـة له بدِينٍ أحدَثَ انقلاباتٍ عظيمةً في تاريخ العالم وتحققت على يديه نهضةٌ مذهلة شـملت رقعـةً كبيرةً مـن الأرض حتى القرن الخامـس الهجري، نجد هذا الشـخص يتكلـم بجهل عـن هذا الديـن وأتباعه بعبـارات مهينـة، ويعزو مـا يقولـه إلـى حرية الـرأي والتعبيـر، بيد أن كلام إنسـان فـي غير مجال تخصُّصـهِ -خصوصًـا في عصرنا هذا الذي علا فيه شـأوُ التخصص- يُعدّ إسـاءةً إلى هذا المجال وإلى نفسـه، ثم إلى العقل السليم والمنطق السليم والمحاكمـة السـليمة والضميـر السـليم، ومـن ثَـمّ فعلى ذلك الشـخص الـذي تصرّف بهذه الوقاحة ألّا يتكلـم جزافًا وألا يتضجر من ردود أفعال الجماهير العاطفية؛ لأنه هو البادي بالكلام غير اللائق والمبادِرُ بالأسلوب غيـر المناسـب، أمـا مَن تعرضـوا لتلك الوقاحـة فهم جماعة كُثـرٌ يتراوح

عددهم من أربعة إلى خمسة ملايير إنسان، ومن المحتمل دائمًا أن تجد بين مثل هذا الجم الغفير من يتحركون بدافع من مشاعرهم وعواطفهم الانفعالية الجياشة.

إن كان بيتكم من زجاج...

ومن جانب آخر فإنه يتوجب علينا -نحن القلوب المؤمنة- أن نكون دائمًا أكثر حساسية في أقوالنا وتصرفاتنا وسلوكياتنا، وأن نحسب جيدًا قبل أن نتفوه -ولو بكلمة واحدة- عواقبَ تلك الكلمة، وألّا نتسرع في البوح بأمور تخص قلوبنا؛ أجل، يلزم ألا يُنسى أبدًا أن ما نلفظه من أقوال يمكن حملها على معان أخرى من ذوي النوايا السيئة، كما ينبغي أن نضع مشاعر المخاطبين في الحسبان عند الحديث، فإن كان بيتكم من زجاج فلا ترموا بيوت الناس بالحجر، وإلا فقد تسببتم في تخريب بيتكم بأيديكم.

وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى هذا الهدي بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ١٠٨/٦)؛ أجل، إنكم إن تسبّوا آلهة الآخرين؛ لاتهم، ومناتهم، وعُزّاهم، وإسافهم، ونائلتهم... إلخ، فإنهم سيبدؤون هم كذلك في سبّ من تقدسونه، ولا يوجد في الكتاب، ولا في السنة، ولا في اجتهادات السلف الصالحين أمرٌ أو توصيةٌ ما بسبّ أوثان يعبدها عُبّادها من دون الله، ومن ثم فإن عليكم أن تعبّروا عن الصواب في كل وقت: وذلك بأن تتحدثوا عن التوحيد، وتُعلوا شأنه دائمًا؛ هذه مسألة أخرى، لكن ليس من مسؤولية المؤمن ولا من مهمته تحقيرُ الأشياء التي لا قيمة لها في نظره أوتزييفُها.

فيا ليتنا نقول كل ما نقوله ونكتب كل ما نكتبه ونفعل كل ما نفعله وفقًا لمعايير القرآن الكريم والسنة النبوية! لأن نتائج بعض السلوكيات التي تحدث عند الفراغ الحسّيّ قد تكون -في غالب الأحايين- مضرّة جدًّا لقِيَمنا.

وعلى ما يُتذكر فقد اعتُدي على كتابنا العزيز القرآن الكريم في أحد الأماكن في وقت قريب؛ واعتُدي في أعقاب هذا على بعض الكنائس في مكان آخر، وخُرّبت مبانٍ؛ نعم، إن الهجوم على القرآن الكريم وقاحةٌ وعدمُ اتزان، إلا أن القيام بتخريب الكنائس كردّ فعل على هذه الوقاحة نوعٌ من عدم الاتزان أيضًا.

ولهذا السبب ينبغي للإنسان قبل أن يلجأ إلى أي تصرف وسلوك يؤذي الآخرين -أيًّا كان هؤلاء الآخرون- أن يحسب حسابًا جيدًا كيف يرتد هذا التصرف عليه، ثم يقول ما سيقوله أو يفعل ما يريد فعله، يتعين على من يتعرضون للازدراء أن يضعوا ردود أفعالهم في خط إيجابي دائمًا، وأن يختاروا طريق إزالة القبائح عبر استخدام السبل العلمية والقانونية، وألّا يتنازلوا عن مستواهم وشخصياتهم أبدًا، وألا يُخطئوا في الأسلوب؛ أجل، ينبغي أن تُدفع تلك النوعية من الهجمات والاعتداءات بما يليق بتصرف الإنسان المتحضر، وإلّا فإنه لن ينفع الندم والبكاء فيما بعد.

كم تمنيتُ لو أمكن تحقيق إجماع عالمي في موضوع احترام المقدسات! وسعيتُ إلى أن أُسمِع صوتي في هذا الخصوص إلى بعض السلطات، لكن يبدو كأنني عجزت عن التعبير عن مرادي -في هذا الصدد- تعبيرًا تامًّا واضحًا.

إن حرية الفكر والتعبير مفاهيم مهمة يُعتنى بها كثيرًا في عالمنا المعاصر، لكن -وللأسف- في الوقت الذي يُعدّ تحقيرُ الأديان والعقائد

والمقدسات وسبُّها حريةَ فكر في رأي بعض الأوساط، لا تُعتبر هذه النوعية من الكلمات والبيانات القبيحة حرية فكر وتعبير بالنسبة للمجالات الأخرى، بل على العكس من ذلك إنها تُقبل على أنها جريمةُ حِقد وكراهية، والواقع أن المؤمن الحقيقي ممثِّل الأمن والأمان على وجه البسيطة لا يتكلم كلامًا ضد أحد بغير حق، ولا ينوي التحقير والتزييف في أي وقت، بل ولا ينبغي له ذلك، غير أنه من الواضح تمامًا أن إطلاق العنان لحرية الفكر والتعبير في بعض المجالات والساحات، ومَنْعَها في بعض المجالات الأخرى كيلٌ بمكيالين وانتكاسة خطيرة، وهذا يؤذي القلوبَ المؤمنة إيذاءً عميقًا.

والحاصل، أن ثمة حاجة ماسة اليوم إلى أن تمتلك الإنسانية كلها فكرة احترام المقدسات، وأن يُحفز هذا الشعور لدى الجميع من أجل الإنسانية، إذ ينبغي لمنظمات دولية تشارك فيها كل الأمم أن تُقيم هذه المسألة على أساس لا يحتمل التأويل، ويلزم أن تُوضع قواعد حاسمة فاصلة، ليت الإنسانية كلها تتفق في هذا الموضوع! ليت كل إنسان يعرف حدوده! لأن المسائل النابعة من هذه النوعية من البذاءات والاعتداءات في عالمنا المعاصر المتصاغر المتضائل سوف تُظهِر نفسها في صورة مشاكل أكثر هولًا وأكبر حجمًا عند الإخلال بمبدأ احترام مقدسات الآخر، الذي هو أحد العناصر المهمة في العيش سويًّا في سلام.

openkandil.com